

ومضات من حياة الشيخ محمد هشام البرهاني رحمه الله

بقلم ولده الشيخ محمد ياسر البرهاني (بتصرف)

ماذا أقول وقد تم عام هجري كامل على من
لم أستفق بعد من صدمة غيابه من لا تزال نفسي
لا تصدق أن الثرى قد واره الرقم سبع وعشرون
هو من يقرع عقلي ونفسي وخاطري وبه يخفق
قلبي السابع والعشرون من شهر جمادى الآخر
السابع والعشرون من شهر نيسان



قد عايشته وناظرته ووعيته في الحل وفي الترحال في الصحة وفي المرض في السعادة وفي الحزن في
الرضى وفي الغضب عايشته صغيراً وعايشته كبيراً فما تغير في نظري وما تبدلت فيه شهادتي ومهما
قلت ومهما فصلت فإن كلامي عن سيدي ووالدي ومريبي وشيخي الشيخ محمد هشام لن يحيط
بفضله ولن يستوعب مناقبه قد أعرضت حالاً من أحواله أو خصلة من خصاله أو مزية من مزيائه
لكنني حتماً لن أدرك الشيخ محمد هشام والشيخ محمد هشام إلا بالذوق!

فعن أي شيء أتكلم وعن أي شيء أتحدث هل أتكلم عن الشيخ محمد هشام العلامة؟ أم عن
الشيخ محمد هشام الفقيه؟ أم عن الشيخ محمد هشام الأصولي؟ أم عن الشيخ محمد هشام المحقق؟ أم
عن الشيخ محمد هشام الحافظ؟ أم عن الشيخ محمد هشام الفلكي؟ أم عن المربي الشيخ محمد هشام؟ أم
عن الواعظ الشيخ محمد هشام؟ أم عن المرشد الشيخ محمد هشام؟ أم عن الداعية الشيخ محمد هشام؟
هل أحدثكم عن كتب ألفها وأخرى حققها؟ أم أحدثكم عن شعر نظمته وقصائد كتبها؟ أم عن
خط كان يخطه بيده؟ أم عن رسوم ولوحات فنية أبدعها؟ أم أحدثكم عن شهاداته وإجازاته وتحصيله

!!؟

أثرت أن أعرف عن كل ذلك وأن أحدثكم عن أبي كما رأته عيناى وكما وعته حواسى وإن أحدثتكم فعن بعض من أخباره عن نُتفٍ من خصاله أقطف لكم بعضَ زهراتٍ من بستانٍ وارف فأقول: أما حياؤه وتواضعه:

دخلت عليه مرة في الأيام الأخيرة التي سبقت وفاته وقد ناهز الثانية والثمانين ومن في مثل سنه يحتاج إلى الراحة يحتاج أن يمدَّ رجله ولا أحد يلمُّه -خصوصاً وهو في بيته وفي غرفته- دخلت عليه وكان ماداً رجله على طاولة صغيرة فلما رأني قبضهما وأخفضهما فرجوته مراراً وتكراراً حتى قبل أن يعودَ فيمُدُّهما ثم ما لبث أن عاد فقبضهما عين التواضع عين الأدب في بيته وأمام ولده؟! رحمك الله يا أبي وأسأل الله تعالى أن يُعلي مقامك وأن يرفع ذكرك

- كان رحمه الله حياءً يرفض أن يمسدَّ له أحدٌ رجله أو أن يلبسه جوربيه كان يأبى ولا يقبل إلا بعد جهد وإصرار وبعدما نرجوه ونرجوه أن يأذن على الأقل لحفيد من أحفاده يقبل محرّجاً من شدة الرجاء الذي رجونه

- أكون قاعداً معه فأراه قد قام أسأله: خيراً تأمرون بشيء؟ تحتاجون شيئاً؟! فيجيب: لا ثم ما يلبث أن يعود وفي بيده الماء فماذا أقول وماذا أكتب؟! تسليمه وتفويضه:

كان رحمه الله آيةً في ذلك كان أمره عجيباً لم أر في حياتي أحداً مثله مفوضاً ومسلماً والذين سافروا معه يشهدون بذلك كان رحمه الله بمجرد أن ينعقد العزم على سفر أو رحلة ثم يُختار فلانٌ أميراً للرحلة أو منظماً لها ومرتباً يصير فرداً من أفراد الرحلة فلا يتدخل في شيء ويعكف إلى سبحته ويشغل بالصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وكلما سئل عن أمر من الأمور المتعلقة بالرحلة مثل الاستراحة والطعام والمبيت أجاب: كما تحبون كما تريدون ما ترونه مناسباً وفي مرات يقول مماًزحاً: "اسألوا اللّعيبة" حتى في البيت حيث كانت السيدة الوالدة حفظها الله تسأله: ماذا ترغب أن يكون طعامنا اليوم كان يجيبها بنفس الجواب: "إسألوا اللّعيبة".

لا أذكر أنه في مرة قال أريد أن أكل كذا أو نفسي تشتهي كذا باستثناء السنوات الأخيرة من حياته كان يُفضل تفضيلاً الحساء "الشورية" لأنه خفيف وأسرع في التناول.

- في كلِّ رحلة يكون فيها إخواننا في الجامع كان يأبى إلا أن يركب الحافلة معهم كان يرفض الطائرة والسيارة المريحة ويقول: أنا أريد أن أكون مع الشباب الطريق طويلة وهي فرصة لكي أعيش معهم فأستفيد ويستفيدون.

ولكم أن تتصوروا يا أيها الإخوة كم تكون رحلة كتلك شاقّة على من في مثل سنّه وأنا أتكلم عن رحلات وليس عن رحلة واحدة فقد أكرم الله إخواننا بعدة رحلات معه في سني حياته الأخيرة وحاله في كلها كان حالّ التفويض والتسليم

مرةً تعطل الباص بسبب نفاذ الوقود ومكثنا قرابة الساعتين ضاح فيها من ضاح وعتب من عتب ووالله ما نبس بنت شفة وما قال كلمةً تجرح أو تزعج بل استمر يُسبح ويصلي على النبي ﷺ !!

- وكان حين نصلُ إلى مقصدنا في الرحلة حتى في الرحلات الأسرية كان يقول: أنا معي عدد كذا من الصلاة على النبي ﷺ بحسب مدة الرحلة.

- لم يكن التسليم والتفويض حالاً من أحواله بل كان مقاماً أقامه الله فيه ليس في الرحلات وحسب بل كان كذلك في كلِّ ما كان يعتز به من مهمات وأحوال صحية ما كان يُرجح رأياً على رأي ولا يعزم على شيء ولا يقرر بل كان يقول: انظروا رأي المختصين انظروا رأي فلان أو فلان من الثقات !! ومع الاستشارة كان يعتمد الاستشارة. حتى نحن أولاده ما كان يعزم علينا في أمر ولا يفرض علينا رأياً بل كان - وهذه من مزاياه في التربية رحمه الله - كان يبين لنا السلبيات والإيجابيات في الأمر ثم يتركنا نحن أن نختار !! إلا أن يكون أمراً لا يحتمل جوابين فكان يصرح ويقول: نعم أو يقول: لا وقد قال لي: "لا" مرة واحدة في حياتي يوم عازمت على دراسة الطيران يومها صرّح لي وقال: ليست لنا

في بيته ومع أهله:

قد تمثل حال النبي ﷺ وكيف كان في مهنة أهله كان رحمه الله تعالى يعين السيدة الوالدة حفظها الله في شؤون البيت وخصوصاً حين كان الأحباب يلتقون في البيت في مولد أو درس أو لقاء وكان يجب إكرامهم وإكرامهم يتطلب الجهد وكانت السيدة الوالدة حفظها الله تُعينه على ذلك وتأبى إلا أن تُحضّر الطعام بنفسها فكان يُعينها في التحضير وفي الترتيب بعد انصراف الضيوف وربما وجدناه في بعض أحيان يُقبل إلى الجلي يريد مساعدتها في الجلي فتأبى السيدة الوالدة بكرم

خلقتها وتقول له: لا يليق بك هذا هيبتك ومقامك أكرم من أن تقوم بهذا!!
فإن كان وحده في البيت واستعمل شيئاً من الأدوات ككأسٍ أو صحنٍ أو ملعقة ما كان يترك ذلك من دون أن يُنظفه وأن يُعيده إلى مكانه.

مع إخوانه:

كان يجاملهم ويتحجب إليهم ويجتهد في إكرامهم وفي الرحلات كان يقوم بخدمتهم بنفسه كان رحمه الله يشتغل معهم في الطبخ والتحضير بل وحتى في أعمال التنظيف!!
وما كان رحمه الله يحب أن يُثقل على أحد حتى أحبَّ الناس إلى قلبه وأخلصهم إليه المرحوم الحاج أبا حمدي السمان الذي كان يتفاني في مصلحة سيدنا الشيخ وخدمته حين نكون على موعد لحفل أو ما شابه كان يجند نفسه وسيارته كان سيدنا الوالد عليه رحمة الله يقول لي: يا بني اسبق واتصل بالعم أبي حمدي وقل له نحن سوف نمر إليك بالسيارة ونادراً ما كنتُ أوفق في الظفر بذلك وكيف لمثلي أن يسبق مثله؟!!

ذوقه ولطفه:

في رحلة من رحلات العمرة مع إخواننا في الجامع كان أحد الإخوة رفقةً أبيه وكان فتياً يافعاً وقد طوّل شعره خلافاً لرأي أبيه ورغبته وكان الأب يبدي لسيدنا الشيخ عدم سروره من طول شعر ولده وقال له: ليته يحلقه كَلَّه ولما تمت العمرة وجاء الشباب ليتحللوا جعلوا يقصدون الشيخ ليحللهم بيده وهذا من لطفه رحمه الله طبعاً بعضهم كان يحلق وبعضهم كان يقصر لما جاء الشاب إلى الشيخ قال له سيدنا الوالد: "يا سيد فلان من أين تريد أن آخذ لك من شعرك حتى لا أفسده عليك؟؟"
يقول الشاب لأبيه: والله يا أبي لقد أغرقني الشيخ بلطفه فما كان مني إلا أن قلت له: بل أريد الحلق لا التقصير

- في السفر ونحن في غرفة الفندق وفي الفندق من ينظف ويرتب كان حين يقوم من النوم يرتب سريره ويعيده كما كان

وحين كان يدخل بيت الخلاء أو الحمام ما كان يخرج منه كما دخل إليه بل يضطر أن يُنظفه حتى لا يُظنَّ به أنه هو من أساء الاستخدام.

- وكنا إذا خرجنا في نزهة إلى حديقة أو بستان ما كان رحمه الله يدعنا نرمي شيئاً هنا وهناك بل نجمع كلِّ مخلقاتنا في كيس ثم نرميه في القمامة وما كنا نغادر المكان الذي نكون فيه قبل أن يتيقن أن كلَّ شيء نظيف على ما يرام وأحياناً نضطر أن نجمع مخلفات غيرنا حتى لا نكون موضع اتهام.

- وحين كنا ننتقل من بيت إلى آخر يوم كنا في السفر كان رحمه الله يُحضر الدهان فندهنُ البيت ونسد بالاسمنت الأبيض مكان الثقوب في الجدران التي كانت معلقةً عليها اللوحات وننظف البيت ثم نسلم المفتاح لصاحبه أحسن مما تسلمناه منه.

- هذا الحرص كان نمطاً من أنماط التربية كان يُلقنه بحاله لأولاده

وظلابه وأحبابه استفاد منه من استفاد وغاب عنه من غاب ولا بأس أن أذكر قصةً حدثنا بها الشيخ زهير الحافظ بن شيخنا الشيخ عبد الوهاب "دبس وزيت" الحافظ ونحن نزوره مع بعض إخواننا في العيد قال حفظه الله:

الأستاذ هشام كان نعم المرابي كان يعيش معنا في كل أحوالنا في كل صغيرة وكبيرة مرة كنت في السنجدار أُلْعُ حذائي عند منظف الأحذية وفجأة شعرت أن أحداً ما قد وضع يده على كتفي !! نظرت فإذا هو الأستاذ هشام ارتبكت ولم أدر ما أفعل لكنه بهدوء قال لي: لا عليك أكمل أكمل ثم سألتني: عندك وقت أحبته: نعم قال: حين تنتهي أن أذهب وإياك في "مشوار" انتهيت وسرت معه فجعل لا يجد بركة ماء أو تراباً إلا وجعل يمشي فيه وأمشي معه حتى اتسخ حذائي ثم قال لي: لو أنك أخذت "مطربان بوبا" ونظفته في البيت أليس ذلك أفضل من أن ترفع رجلك أمام رجل ربما يكون أكبر منك !! إنه نمط تربية فريد

وفاؤه:

أوجز ما يقال في هذا المعنى أنه رحمه الله تعالى قد أسس مجلس الوفاء والثبات على العهد وهو مجلس بإيجاز أقول: مجلس يعقد في أول خميس من كل شهر قمري في جامع التوبة وفيه تقرأ ختمة من القرآن الكريم وصحيح البخاري ثم يُترجم فيه لعلم من أعلام الشام من العلماء والأولياء والقراء والصالحين وكان يقول: مصادر رحمت ثلاث تنزل على البلاد والعباد وكان يوصي من يترجم أن تكون الترجمة ترجمة عمل وسلوك وليس ترجمة التحصيل والإجازات لتكون سيرة من يترجم قدوة للناشئة

وقد نُجم من خلال هذا المجلس ما يزيد عن مائة ونيفٍ وهي قيد الإعداد والتحضير من أجل طباعتها إن شاء الله تعالى.

لم أر مثل وفائه ولا مثل إخلاصه ولا مثله يُقدم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة لم أر مثله منكرًا لذاته ولم تكن الأنا في قاموسه !!

وقاره واحترامه:

احترم الثوب الذي زين به المولى ولم يُدنّسه في شهوة ولم يبذله في مطعم دنيوي ولا في مصلحة شخصية فاحترم ووقّر لأجل ذلك

كان رحمه الله يبذل جاهه لأجل الآخرين ولصالح المضطرين ودوماً كنا نراه في مصلحة إخوانه والقاصدين له وفي حلّ مشكلة فلان وفلان ولكن ليس ما يتعلق به أو بأهله أو بأولاده يكفي أن أقول لكم في بداية حياتي العملية بقيت أكثر من عامين ونصف العام موظفًا بأجر يومي في وقت كان يستطيع فيه أن يرفع سماعة الهاتف ويطلب فقط يطلب وطلبه مجاب لكنه لم يفعل وحين اشتد الأمر عليّ وقد لاحظ ذلك قال لي: يا بني لا يليق بهذه اللحية أن تطلب وتُرد اصبر واحتسب واسأل الله فو الله ما هي إلا أيام حتى فُرج عني.

وجهاءٌ كثيرون وأربابُ أموال كثيرون من أقارب ومحبين كانوا يثقون بالشيخ رحمه الله في داخل البلاد وفي خارجها يوم كنا في السفر لكنه أبدأً والله ما سأل أحداً منهم شيئاً ولا قصد أحداً في أمر لا شخصي ولا عام موضوع تكييف المسجد وكان مما يحمد الله تعالى عليه أنه لم يحتج أحداً من الخلق بفضل برّه بأبيه وأمه وأنا أزيد وبفضل عنايته بخلق الله خالياً عن الجمععة والرياء.

إغتنامه للأوقات:

ما رأيته في حياتي إلا وهو منهمك إما في مطالعة أو كتابة أو تحضير دروس ولما وعيت على الدنيا وعيت على أبي وهو بين ثلاثة أشياء الجامع والجامعة والجمعية حتى حين كنا نخرج للنزهة كان يحمل معه ما يملأ وقته من قراءة أو كتابة بل أحدثكم عن أبلغ من هذا فترة نقاهة المرض كان ينتهزها في ما يفيد ولا أنسى أن عامل المطبعة كان يحضر إليه مسودات كتابه "تجويد القرآن الكريم" إلى المستشفى ليصححها وهو في السرير بسبب حادث سير سنة ست

وسبعين وتسعمائة ألف ولما كان في نقاهة الأزمة القلبية في العام ألفين وثلاثة كان يشتغل بفهارس كتاب الهدية العائلية.

الكلام عن سيدنا الوالد يطول ومجالات كثيرة لم أخض فيها بعد كعمقه وشموله وبعد نظره ووفور عقله ورجاحته وحكمته وشدة تأثيره وغيرها المجال لا يتسع للخوض في كل ذلك الآن لذلك أنتقل إلى الأمرين المهمين واللذين بلا شك من مظاهر إكرام الله سبحانه وتعالى لسيدنا الوالد عليه رحمة الله وبهما تصبرنا على ألم فراقه

الأول: إكرام الله سبحانه وتعالى له أن ختم له على حال الخير الذي عاش عليه من التفاني في نشر العلم والدأب والحرص عليه فقد اختاره ربي سبحانه وتعالى إلى جواره بعد درسين أداها أحدهما تحدث فيه عن الموت والسفر إلى الآخرة وكان في يوم الجمعة قبل رحيله بستٍ وثلاثين ساعة!! وذكر فيه مشايخه ومشايخ جامع التوبة وأولياءه وصالحيه وقد اجتزأت لكم نصاً منه نسمعه معاً إن شاء الله تعالى

الدرس الثاني كان يوم السبت يعني قبل ثنتي عشرة ساعة من وفاته وكان حديثه فيه عن الميراث ضمَّنه وصيةً بالأُم ثم ذكر قصة سيدنا جابرٍ رضي الله عنه لما عادته النبي صلى الله عليه وسلم وهو مريض فألهم رحمه الله كلاماً نعى فيه نفسه ثم علَّمنا الورع في تقسيم الميراث مستشهداً بقصة حكاهما عن نفسه وعن أبيه سيدنا الجد عليهما رحمة الله تعالى

الأمر الثاني الذي أكرمه به مولاه هو أنه قد قبضه إليه في أرض الرباط في أرض الشام المباركة بعد أن أبى الظعن عنها وقد قال لي مرةً بعدما كثر الذين كانوا يدفعونه إلى الخروج "أنا لا أخرج من الشام أنا هنا بأمرٍ من رسول الله صلى الله عليه وسلم"!!

وبعد الدرسين صحبه إلى البيت أخونا الوفي الأستاذ محمود توتونجي "أبو هشام" فكان آخر شيء قاله له وهو يودعه: قل يا أبا هشام الله يدبم علينا جامع التوبة الله لا يقطعنا عن جامع التوبة

وفي وقت السحر من فجر يوم الأحد المصادف للسابع والعشرين من شهري جمادى الآخرة ونيسان فاضت روحه الطاهرة إلى بارئها بعد أن توضعاً وتجهز للصلاة وكان آخر شيء دخل جسمه

الحليب والعسل وكان قبيل النوم خلافاً لعادته وكان في الفترة الأخيرة التي سبقت وفاته لا يأكل إلا لقيمات يسيرة جداً كأنما كان يتجهز للقاء !!

لقاءً أسأل المولى تبارك وتعالى أن يجعله فيه من السعداء وأن يُنزله فيه نُزْلَ الأبرار والشهداء وأن يجمعنا وإياه مع صاحب اللواء على الحال الذي كان يُكثر سؤاله اللهم اجمعنا تحت لواء حبيبيك ﷺ من غير عذابٍ ولا حسابٍ ولا عتابٍ !!
ومن غريب ما جرى:

- أن أحد رواد الجامع حدثني فقال: أنا منذ أكثر من خمس عشرة سنة ألام الجامع وأحضر الجمعة فيه وفي كل مرة وبعد انتهاء الصلاة أعطي الشيخ "منديلاً" هذا أمر عادي لكن الغير عادي في الأمر أنه في الجمعة الأخيرة وعلى خلاف عادته وبعد أن أعطيته المنديل وانصرفت عاد فنناداني وقال لي: تعطيني إياه في الجنة إنشاء الله.

- عند الدفن جيء بوليد صغير كان قد مات وجاء أهله وسألوا: هل تسمحون لنا أن ندفن هذا الوليد مع الشيخ فقلت: طبعاً ليس لدينا مانع ووضعنا الوليد في القبر مع الشيخ عند صدره !!
وُضِي عليه في جامع التوبة بعد صلاة ظهر يوم الأحد ثم شُيِّع في موكب مهيب إلى روضة العلماء في مقبرة الدحداح وأدرج بين شيخه اللذين ورثاه وخلفاه شرف خدمة الطريقة الشاذلية سيدنا ومولانا الشيخ محمد بالهاشمي وسيدنا ومولانا الشيخ محمد سعيد برهاني رحمهم الله تعالى وجمعنا وإياهم في مستقر رحمته مع خُلص أصفياه تحت ظل عرش الرحمن وفي حوار المصطفى العدنان اللهم أجرنا في مصابنا واجعل أجرنا فيه فرجاً عن شامك اجعل أجرنا فيه عزاً لأولياك اجعل أجرنا فيه تمكيناً لأهل الحق في ديارك آمين آمين والحمد لله رب العالمين.